المحاضرة السابعة (التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية)

بعدما استكملت القوات الفرنسية عملية اجهاض الانتفاضة الشعبية شمال الصحراء، جاء دور تنفيذ واستكمال مشاريعها الكبرى من أجل تسهيل عملية التوغل في قلب الصحراء واحتواء سكانها، وتحقيق مشروع الجزائر فرنسية الذي طالما حلمت به حكومة باريس منذ 1834. وقد سخرت لذلك لجنة حكومية على المستوى العالي، وأرسلت على اثر توجهاتها ثلاث بعثات استكشافية استعمارية لمعرفة قلب الصحراء.

1 – بعثة "فلاتيرس"(Flatters) 1880

لقد تم اعتماد هذه البعثة رسميا في شهر ديسمبر 1879 ووضع على رأسها الضابط العسكري "فلاتيرس" (Flatters) الذي كان برتبة عقيد للمشاة القائد الأعلى للأغواط، وإلى جانبه تسعة أعضاء أخرين وهم: "موسون" (Musson) نقيب أ ركان الحرب و"بيرنجر"(Berinnger) مهندس الجسور والطرقات، و"روش" (Roche) مهندس المناجم، و"برنار"(Berard) نقيب في السلاح المدفعية و"غيارد"(Guiard) الطبيب، و"لوشاتولييه" (Le Chatllier) و"بروسلار"(Brosselard) ملازمي المشاة و"كابايو"(Cabaillot) و"رابردرن" (Rabourdin) مسيري الجسور والطرقات.

انطلقت البعثة من ورقلة يوم 21 ماي 1880 بحوالي مائة بعير متوجهة نحو منطقة ميزاب. وقد "فلاتيرس" معلومات وافية حول المناطق التي اجتازها من وصف للكثبان الرملية والصخور والأودية والأشجار والحدائق بواد ميزاب وغيرها. وفي يوم 26 غادرت البعثة بلدة العطف واتخذت مجرى وادي ميزاب خط سيرها إلى أن وصلت مدينة بني يزقن بغرداية، وبعد تجول البعثة في انحاء غرداية يوم 28 ماي متوجهة إلى بلدة بريان التي قضت بها يومي 29 و30، ثم واصلت طريقها إلى أن دخلت مدينة الأغواط يوم 03 جوان على الساعة العاشرة صباحا، وكان في القائد الأعلى "بولا"(Bolin) الذي استضافهم عنده.

بعد هذه الرحلة ذهب "فلاتيرس" إلى باريس، حيث استقبل من طرف مصلحة الطريق الصحراوي (Transaharien) والتي سلمت له الأموال اللازمة من أجل اعادة الكشوفات في الشتاء المقبل، وهكذا رجع "فلاتيرس" إلى ورقلة حيث نظم رحلته الثانية إلى أقصى الجنوب الجزائري واكتشاف بلاد التوارق، ودراسة مد خط حديدي عبر هذه الفيافي، وظهرت هذه البعثة بمظهر الاستكشاف العلمي والسلمي. وكانت تضم هذه البعثة، أحد عشر فرنسا، وسبعة وأربعين جنديا من الأهالي، واثنين وثلاثين سائق بعير، وثمانية من رجال الشعانبة للاستدلال عن المسالك، وأربعة توارق. ومجموعة من الجمال تحمل أمتعتهم. وانطلقت البعثة من ورقلة في شهر ديسمبر 1880 ووصلت إلى منطقة أمقيد في 12 جانفي 1881، ثم تابع "فلاتيرس" حتى وصل إلى منطقة تماسينت التي استقر بها بين 12 و13 فيفري وتعامل بها مع العديد من التوارق.

وإذا فرنسا، قد صممت على التوسع، فإن قائد التوارق "أمنوكال" كان على يقين بتحركات "فلاتيرس"، ونصب له كمينا بعدما عزز من جواسيسه وأرسل جماعة من فرسانه لإظهار النية الحسنة للتعاون مع البعثة الفرنسية، وتقديم لها الإرشادات الوفية، لكن خطة "أمنوكال" كانت في حقيقتها تندرج في المراهنة على انجاح الكمين الذي نصبه لها قرب بئر الغرامة بتاريخ 18 فيفري 1881 أين نصبت خيام البعثة، وفوجئ "فلاتيوس" وجماعته وأتباعه بهجوم فرسان التوارق المدججين بالأسلحة. الذين بعد معركة عنيفة تمكن التوارق من القضاء "فلاتيرس" وأعوانه ولم ينجوا إلا القليل من الجنود الأهالي الذين رجعوا سالمين إلى ورقلة ورووا تفاصيل الواقعة.

كانت أحداث بعثة "فلاتيرس" بمثابة صدمة عنيفة للعمليات الاستكشافية في الصحراء، وأصبحت تعد من الوسائل المحفوفة بالمخاطر، لذلك تعطلت الاستكشافات لمدة سنوات، لكنها ما لبثت أن انطلقت من جديد وبكل قوة رغم مخاطرها، فقد قام الملازم " مرسال بلات" (Marcel Paat) باكتشاف قصور تديكالت، ولكنه قتل سنة 1886 قرب عين صالح، كما قتل المغامر الإنجليزي "كامييو دولس" (Camille Douls) جنوب توات، وقام النقيب "مونتاي" (Monteil) بجولة من سان لويس غربا طرابلس شرقا سنة 1890، ثم أن نجاح البعثتين الفرنسيتين إلى مجرى النيجرن وهما بعثة "توتيه" (Toutee) وبعثة "|هورس" (Horst) اللذان تمكنا من دراسة المجرى، وإمكانيات الملاحة النهرية فيه من أجل الأغراض التجارية شجعت "فورو" (Foureau) و"لامي" (Lamy) على اكتشاف بحيرة تشاد، فانطلقت بعثة (فور - لامي) من ورقلة يوم 13 أكتوبر لتقطع حوالي ألفي كيلومتر عبر صحراء قاحلة وموحشة، لتصل إلى تشاد بعد سنة كاملة، وتعتبر هذه الرحلة أول عبور من الجنوب الجزائري إلى تشاد. وختم القرن التاسع عشر ببعثة "فلامون"(Flamand) التي احتلت بها عين صالح.

2 – بعثة "فلامون"(Flamand) واحتلال عين صالح 1900

لقد فتحت البعثة العلمية لـ "فلامون" إلى عين صالح آفاقا واسعة أمام التوسع الاستعماري الفرنسي في الجنوب الجزائري. حيث انطلقت البعثة في خريف 1889 واخذت طابعا علميا لاكتشاف منطقة تادميلت والتعرف على أخوالها الجيولوجية والنباتية وإمكانيات مياهها الجوفية وغيرها، غير أنها تحولت في الأخير إلى حملة عسكرية شرسة. أشرفت وزارة المعارف العمومية والمستعمرات على هذه الرحلة، ودعمتها الحكومة بميزانية خاصة إثر طلب الوالي العام "لافريار" (Laferrierre) كما أمرت السلطات الاستعمارية النقيب "بان" (Pein)، الذي كان يترأس المكتب العربي بورقلة، بأن يحمي هذه البعثة على رأس فرقته المتكونة من تسعين مهربا، وخمسة عشر فارسا، وانضم إليهم مقدم القادرية بورقلة ومعه أربعون مهربا، كما كلف وزير الحرب النقيب "جرمان" (Germain) بالتحرك مع فرقة الصبايحية الصحراوية باتجاه البعثة لحمايتهم وقت الحاجة.

غادرت البعثة مدينة ورقلة يوم 28 نوفمبر 1899 متوجهة إلى عين صالح، فاتبعت في البداية طريق الرحلة الأولى لـ "فلاتيرس" وفي يوم 09 ديسمبر من نفس السنة وصلت إلى حاسي إينقل، وفي يوم

15 ديسمبر إلى حاسي سوقي" التي غادتها بعد ثلاثة أيام لتلتحق بحاسي المسقم، ومنه إلى رق أجمار ووادي مسين، أما يوم 26 ديسمبر فقد وصلت البعثة إلى فوقارات الزوا. ومن الغد التحقت بواحة ايقوستن.

اكتشف أهالي عين صالح ونواحيها نوايا البعثة، فاستعدوا للجهاد والمقاوم، فقاموا بهجوم عليها يوم8 ديسمبر 1899 في الصباح الباكر وبقوة تقدر بحوالي 1200 رجل تحت قيادة الحاج "المهدي باجوادا" رئيس قبيلة أولاد باجودا. استمرت المعركة حامية الوطيس إلى حوالي العاشرة صباحا قتل على إثرها الحاج "المهدي باجودا"، مما أدى إلى تشتت صفوف المقاومين وفشل الهجوم وسيطر النقيب "بان" على الموقف، خاصة بعد أن تدعمت البعثة بفرقة الصبايحية تحت قيادة النقيب "جرمان" واستطاعت أن تواصل سيرها وتدخل القصر الكبير لتستقر بقصبته ريثما تستريح وتواصل طريقها إلى عين صالح.

ثم تجددت المعركة بالقرب من دقامشة يوم 05 جانفي 1900ن فاحتمت البعثة بحصون وحدائق القصر ، وبدأ الاشتباك حوالي الساعة التاسعة صباحا بتبادل الطلقات النارية، ثم قامت الصبايحية والقوم بهجوم عنيف صاحبته طلقات نارية مكثفة زعزعت صفوف المقاومين وبعثرتهم، مما جعلتهم ينسحبون لمعاودة الهجوم.

تعرضت البعثة لهجومات متكررة، طيلة مكوثها بالقر الكبير، لذلك قرر الوالي العام "لافريار" تدعيمها بفوات اضافية فأمر القائد "بومقارتان" (Boumgarten) القائد الأعلى لدائرة القليعة (المنيعة) بالتحرك نحو عين صالح على رأس الفرقة العسكرية الصحراوية المتكونة من مائة وخمسين جنديا ومائة وخمسين رجال القوم، وذلك للسيطرة نهائيا على المنطقة.

وصلت الفرقة إلى القصر الكبير يوم 18 جانفي 1900 واندمجت مع بعثة "فلامون" لترجي كفتها ضد الثوار، وتقضي على المقاومين، فتمكنت البعثة – بعد ذلك – من مواصلة سيرها والدخول إلى عين صالح. وهكذا؛ وقعت عين صالح وما جاورها من واحات تحت الاحتلال الفرنسي، وهي تتمتع بأهمية استراتيجية فائقة، لأنها تقع على مسافة متساوية ما بين الجزائر شمالا وتمبكتو جنوبا، ومقادور غربا وطرابلس شرقا، وهي ملتقى الطرق التي تربط شمال القارة بالسودان، فضلا على أنها مركزا ممتازا لتمويل التوارق.

بعد ما انتهى "فلامون" من مهمته استقبل بمدينة الجزائر استقبالا رسميا من طرف السلطات المحلية، كما استقبل أيضا من طرف الوالي العام، ليقدم له عرضا حول رحلته، التي استخلص منها نتائج هامة حول الملاحظات الجيولوجية والري الصحراوين الجغرافية الفيزيائية والفلكية، والمكانيات الاقتصادية للمنطقة، وعلاقة فرنسا بالصحراء والشعوب السودانية ... وقد نشرت مجلة افريقيا الفرنسية لسنة 1900 معلومات غزيرة حول هذه الرحلة، وهكذا بهذه الرحلة الاستكشافية دخل

جنوب الجزائر مرحلة جديدة من تاريخية، ألا وهي مرحلة الاحتلال الفرنسي الفعلي والكلي للصحراء الجزائرية.

وهكذا؛ بعد احتلال عين صالح تمكنت القوات الفرنسية القوات الفرنسية من دخول عين غار غرب عين صالح يوم 24 جانفي 1900، ثم تمكنت من احتلال تيت يوم 24 مارس 1900، وفي يوم 25 وحات أقابلي، وفي يوم 28 مارس احتلال واحات أولف واحتلال إيغلي يوم 05 أفريل 1900.

بعد هذا التوسع في الجنوب أصدرت فرنسا قرارات لتنظيم الإقليم الصحراوي مؤقتا، تتضمن ما يلي:

- البند الأول: في انتظار التقنين النهائي للإقليم الصحراوي لا بد من ان شاء إدارة ملحقة للشؤون الأهلية متصلة بقائد ناحية الجزائر بالنسبة لمنطقة توات إلى الناحية الوهرانية بالنسبة لمنطقتي زوزوفانة ومنطقة الساورة.
- البند الثاني: إنشاء ملحقات في عين صالح وفي إيغلي تتضمن تعيين: ضابط برتبة نقيب أو ملازم، مترجم، خوجة، كاتب.
- البند الثالث: القادة (القيادة) لإدارة شؤون الأهالي يعينون من طرف رئيس الملحقة.
- البند الرابع: يكلف جنرالات ناحيتي الجزائر ووهران بتنفيذ هذا القرار.

إمضاء الوالي العام. لافريار

هذا وقد تم تعيين "دوسوسيبال" (De Susbiell) على رأس ملحقة عين صالح، والنقيب "نوشاز" (Nochez) على ايغلي والنقيب "بان" على ورقلة.

3 – احتلال قورارة وتوات

استمرت فرنسا في توسعها الاستعماري في الجنوب الغربي، فأرسلت يوم 17 أفريل 1900 طابور العقيد "مينسترال"(Menestrel) لإخضاع قصور اقليم قوارارة. ورغم قوة الجيش الغازي المتألف من 800 رجل ومدفعين والذي اطلق من المنيعة، فإن سكان قوارارة قد وقفوا أمام هذا التوسع، وقاموا زحف الجيش الفرنسي، مما اضطر القوات الفرنسية إلى طلب المدد، الذي وصلها من الببيض بفرقة تتكون من 400 جندي استطاعت بعدها القوات الفرنسية أن تدخل مدينة تيميمون يوم 12 ماي، وأن تخضع المنطقة لنفوذها، ثم استمر الجنرال "مينسترال" في اخضاع ما بقي من الأقاليم، فواصل سيره يوم 31 ماي إلى قصور زوا ودلدول.

عرفت الشهور الأخيرة من سنة 1900 تجميع القوات الفرنسية في المنيعة لإنشاء طابور جديد لاحتلال اقليم توات، غادرت هذه القوة المنيعة يوم 8 جانفي 1901 وحلت بتيميمون يوم 26 جانفي حيث قام الجنرال "سرفيال" (Serviere) بأخذ جميع احتياطاته باعتباره قائد هذه الحملة.

رصدت السلطات الفرنسية لهذه المهمة طابورين، أحدهما تحت قيادة الجنرال نفسه ويتضمن 800 جندي مع أربعة مدافع والآخر لا يحتوي إلا على 300 جندي تنطلق من تيديكالت لتلتقي مع طابور الجنرال الذي انطلق يوم 30 جانفي من تيميمون، في بلدة تيمي.

هكذا دخلت القوات الفرنسية اقليم توات وتم اخضاعه للسلطة الفرنسية بعد أن أوقعت عاصمته زدارار في قبضة القائد الفرنسي يوم10 فيفري 1901، وحاول السكان المقاومة والاستغاثة بالسلطان المغربي ولكن دون جدوى.

لقد تميزت سنة 1901 بإخضاع منطقة وادي الساورة، وتنصيب الحاميات العسكرية بها، فقد مبت حامية تاوريت وتاغيت تحت القيادة العليا للعقيد "بييع"(Billet). وتم احتلال بني عباس يوم 01 مارس 1901، ونقل مركز مكتب الشؤون الأهلية من إيغلي إلى بني عباس، وقد أشرف على هذا الاحتلال الجنرال "رسبورغ"(Risbourg) قائد الناخية العسكرية بوهران الذي استقر ببني عباس وأرسل العقيد "بيته" للالتقاء مع الجنرال "سرفيار" للالتقاء حتى تتلاحم القوتان، وقوة الناحية الوهرانية وقوة ناحية الجزائر. وقد حدث ذلك في قصابي يوم 13 أفريل 1901.

4 – حملة الضابط كوتنيس (Couttenis) واحتلال الهقار

بعد تمكن القوات الفرنسية من السيطرة على مناطق عديدة ما بين 1900 و1903 مثل تيدكلت وقورارة واقليم توات، وعينت الادارة الاستعمارية الضابط "لابرين"(Laperrine) على رأس القيادة العسكرية التي استحدثت لحكم الجنوب سنة 1902، وهي فترة الحاكم العام في الجزائر "شارل جونار" الذي عرف بسياسة الاسترخاء ومحاولة تذليل الصعاب أمام مع نفر من الجزائريين حصوصا بعد بروز ملامح النهضة الجزائرية الحديثة.

وقد جعل القائد "لابرين" من منطقة عين صالح قاعدة لقيادته العسكرية، بل لم يكتف بذلك واستقدم الراهب الجاسوس "شال دي فوكو" الذي كان متواجدا في بني عباس حتى يعاونه في استمالة السكان، ونشر المسيحية بينهم واخضاع قبائل التوارق، وفي نفس السياق كلفت الادارة العسكرية الضابط "كوتنيس" للقيام بحملة تصب في مسعى الهيمنة على ما تبقى من أراضي الجنوب الجزائري.

وحسب ماذكرته المصادر التاريخية فإن حملة "كوتنيس" توجهت من منطقة أمقيد باتجاه إدلس شمال شرق منطقة الهقار، واستعمل فيها الجيش الفرنسي سياسة الأرض المحروقة التي طبقها الجنرال "بيجو" في منطقة الشمال بعد الاحتلال مباشرة، وكان هدف القائد "كوتنيس هو إبادة كل كائن حي يتعرض لطريقه بالمنطقة، وإدحال الرعب في نفسية سكان الواحات والقبائل الرحل وتهجيرهم إلى خارج الحدود الجزائرية.

وتمكن "كوتنيس" من التوغل داخل الصحراء واستطاع الاستيلاء على منطقة تازروك ومنها توجه صوب منطقة تين تارابين، وهناك اصطدم بالمقاومة الترقية التي كانت تقودها قبيلة آيت لوين، لكن عمر المقاومة لم يدم طويلا بين الطرفين، وتمكن الجيش الفرنسي من دحر المقاومة الترقية

للاختلاف في العدة والعدد بين الطرفين. وبالتالي توسعت الآفاق أمام الجيش الفرنسي ووسع نفوذه ووصل إلى منطقة وادي تيت، وذلك خلال سنة 1902، لكن الجيش الفرنسي وجد صعوبة أمامه مرة أخرى بعد أن تصدى له فرسان التوارق في موقعة قارة تين آسا. وأبدى سكان الهقار مقاومة باسلة من فتل قائد الحملة الفرنسي "كونتيس"، إلا أنهم لم يتمكنوا من الصمود أمام المحتلين ومنوا بهزيمة، وتمت السيطرة الفرنسية على اقليم الهقار. وذلك بعد أن عقدت فرنسا هدنة مع قبائل الهقار في عين صالح اشترطت فيها القبائل ألا تتدخل في شؤونهم، ولكن ذلك لم يدم طويلا حث شرعت فرنسا في الاتصال مع القبائل عن طريق حاكمها، مما أثار غضب "الأمينوكال موسى آق مستان" زعيم قبائل الهقار ، فاندلعت معارك جديدة هي معركة وادي تهراق في 1916، وقد استشهد فيها أربعة توارق بعد أن قضى الثائرون على كل قوات الفرنسية مع قائدها "بتري" ثم معركة "ايلامان" في 1917 التي انتهت بتدمير بتدمير كل القوات الفرنسية واستشهاد 10توارق، وهنا لم تجد فرنسا مناصا من اللجوء إلى "الأمينوكال موسى آق مستان" وطلبت منه العودة إلى اتفاق عين صالح.